

محاولات العلماء العرب في العصور الوسطى اكتشاف مغاليق الكتابات المصرية القديمة

دكتور عكاشة الدالي

متحف بترى للآثار المصرية، يونيفيرستي كوليدج لندن UCL

مقدمة

تعرض هذه الورقة لاهتمام العلماء المسلمين/ العرب في العصور الوسطى بالكتابات المصرية القديمة وتلقي الضوء على محاولاتهم لكشف أسرارها. وتعتمد هذه الدراسة أساساً على المصادر العربية المخطوطة للبحث أيضاً عن أسباب الاهتمام العربي بالخط الهيروغليفي تحديداً وتقصي مدى هذا الاهتمام.

ومن المؤسف أنه لا توجد حتى الآن دراسات منشورة في حقل الآثار المصرية تشير من قريب أو بعيد إلى إسهامات العلماء العرب في مجال الكشف عن أسرار الخطوط المصرية القديمة، بالرغم من أن هذه الإسهامات العربية كانت معروفة بالفعل للعديد من العلماء الأوروبيين في حقل الدراسات الاستشرافية. فعلى سبيل المثال نشر المستشرق النمساوي جوزيف همرفون بروجسترال في عام 1806 بمدينة لندن النص العربي مع ترجمة إنجليزية لكتاب ابن وحشية "شوق المستهام في معرفة رموز الأقلام" والذي يعود إلى آخر القرن التاسع الميلادي (Hammer 1806) كما نشر بلوشيه سنة 1909 وما بعدها سلسلة من المقالات حول الغنوصية الإسلامية (مذهب العارفين بالله) والتي بين فيها نجاح بعض العلماء العرب في التوصل لمعرفة بعض الحروف الهيروغليفية (-Blochet 1909).

استمرار الاهتمام بالخطوط المصرية القديمة

هناك دراسات مستفيضة تبين اهتمام الكتاب اليونان والرومان بخطوط مصر القديمة (e.g. Budge 1929; Iversen 1993; Parkinson 1999; Pope 1999; Solé & Valbelle 1999) تدل في مجملها على اعتقاد أولئك الكتاب بأن العلامات الهيروغليفية كانت رموزاً يمثل كل منها مفهوماً محدداً. وقد ساد هذا الاعتقاد حتى بدايات المحاولات الأوروبية الحديثة لحل أسرار العلامات الهيروغليفية. ومن المهم إدراك خطأ المقولة الشائعة بموت الاهتمام بتاريخ مصر القديمة مع دخول المسيحية والإسلام إلى مصر، وهي المقولة التي اكتسبت صفة المسلمات نتيجة كثرة ترديدها عند جل العلماء في الغرب والشرق على السواء (انظر على سبيل المثال: Valbelle 1994: 38، Haarmann 2001: 191) وهو الأمر الذي عرضته مفصلاً في الدراسة المنشورة (انظر: El Daly 2005).

وليس أدل على ولع أهل مصر بدراسة الهيروغليفية حتى بعد ثبات أركان المسيحية في مصر من تلك الإشارة اللطيفة التي وردت في نصوص نجع حمادي القبطية الغنوصية حيث ينصح هرمس تلميذه بأن يكتب ما يتعلمه من الحكمة على "لوح من الفيروز بالحروف الهيروغليفية" (Discourse on the eighth and ninth VI, 6. in Robinson 1996: 326). ويبدو أن هذا الاهتمام أصبح مدعاة للقلق لدى آباء الكنيسة إذ نجد الراهب القبطي المشهور شنودة (منتصف القرن الخامس الميلادي) يصدر تحذيراً شديداً للهجة ضد دراسة الكتابة الهيروغليفية (Young 1981; Thissen 1994: 256). وهذا الاهتمام بين عامة الأقباط بكتابات جدودهم يأتي بالرغم من موقف الكنيسة المصرية آنذاك الذي كان ينظر بعين الريبة إلى حضارة مصر القديمة باعتبارها حضارة وثنية. وعلى أية حال أدى اهتمام القبط بحفظ بعض ما بقي من تراث أجدادهم سواء في أصوله المصرية أو مترجماً إلى القبطية أو اليونانية إلى شيوع فكرة أن الرهبان الأقباط هم أمناء على حكمة ومعرفة الكهنة الأقدمين. بل يذكر ابن الدوادري في القرن

الرابع عشر أن من المصادر المتداولة عن مصر القديمة أحد الكتب القبطية يسميه "الكتاب القبطي" أشار إلى استخدام الرحالة المسعودي له في القرن العاشر الميلادي (ابن الدواداري، كنز الدرر 3: 36، 214-215 وانظر Haarmann 1982: 207).

وليس هناك أكثر دلالة على احتفاظ مصر القبطية بتراتها المصرية الأقدم من انتشار العناصر الفرعونية في التعاويذ السحرية القبطية بل وجود أسماء الآلهة المصرية القديمة بها جنباً إلى جنب أسماء المسيح والقديسين المسيحيين. (انظر مثلاً Meyer & DuQuesne 1991; Smith 1994: 22-5, 260) والواقع أن أغلب هذه الكتابات السحرية قد وجدت طريقها أيضاً إلى المصادر العربية حيث انتشرت برموزها المصرية القديمة في السحر العربي (Bilabel et al. 1934; Haarmann 1980: 65; Fodor 1992).

فإذا عدنا إلى آباء الكنيسة نجد أن قلقهم من تدهور معرفة رعيتهم للكتابة القبطية منذ القرن الحادي عشر قد أدى إلى ظهور كتب تعرف بالسلم عبارة عن شرح لقواعد اللغة القبطية باستخدام اللغة العربية فتركوا لنا تراثاً ثرياً من الدراسات القبطية باللغة العربية أصبحت هي المصدر الرئيسي فيما بعد للدراسات الأوروبية فنرى كرخر في منتصف القرن السابع عشر الميلادي يستخدم مجموعة من المخطوطات العربية كان قد أتى بها إلى أوروبا الرحالة الإيطالي ديلا فيل، وتمكن كرخر Kircher عن طريقها من كتابة أول كتاب في أوروبا عن قواعد اللغة القبطية بادئاً بهذا العمل الخطوات التي كللت بنجاح شمبوليون في الوصول إلى سر الكتابة المصرية (Pope 1999: 39).

والواقع أن كرخر Kircher في كل ما كتبه عن اللغة المصرية مثل كتابه الشهير "Oedipus Aegyptiacus" (1652-1654) كان دائم الإشارة ليس إلى مصادره العربية فحسب بل كان يضع النصوص العربية كاملة مع ترجمتها اللاتينية. وفي هذا الكتاب استخدم أكثر من أربعين مصدراً عربياً مثل ابن وحشية وابن الرجال وأبو البركات وجلال الدين [السيوطي].

أما في العصر الإسلامي فقد انتشر الاهتمام بالكتابة الهيروغليفية بين العديد من العلماء وخاصة علماء الكيمياء وبين المتصوفة لأسباب تتعلق بشيوع الاعتقاد بأن الكتابات المصرية القديمة تحمل أسرار علوم الكيمياء وتحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب. هذا من ناحية أهل الكيمياء أم المتصوفة فقد وجدوا في هذه الأشكال الهيروغليفية ما يثير نهمهم إلى استجلاء غوامضها. ولجابر بن حيان وابن عربي رسائل بالغة الأهمية تدور حول المعاني المرتبطة بأشكال الحروف وليس أكثر إثارة للاهتمام في هذا الخصوص من الأشكال الهيروغليفية وألوانها الزاهرة.

يضاف إلى ما سبق الاهتمام الطبيعي عند العلماء العرب بالكتابات القديمة منذ القرن الأول الهجري (Sezgin 1967 1: 934).

والواقع أن العلماء العرب كانوا على دراية بالكتابات المختلفة للغة المصرية القديمة فما هو ابن فاتك (القرن العاشر/ الحادي عشر الميلادي) يشير إلى معرفة بيتاجورس العميقة باللغة المصرية القديمة بخط العامة (الديموطيقي) وخط الخاصة وخط الكهنة (الهيراطيقي) ثم خط الملوك (الهيروغليفي). وربما يكون المصدر الذي استقى منه ابن فاتك مثل هذه المعلومة هو كليمنت الإسكندري المتوفى سنة 220 ميلادية (Cory 1840: 169).

ومن المصادر الأخرى التي ربما كانت عوناً للعلماء العرب الآثار التي يوجد عليها نص بأكثر من لغة، كتابة واحدة مثل حجر رشيد ولاشك أنه كان بوسع العديد من العلماء العرب قراءة القبطية واليونانية. ونظراً لعدم حماسة المصريين تحت الحكم اليوناني، الروماني لتعلم اليونانية، اللغة الرسمية للدولة فقد انتشرت عادة إخراج النصوص المصرية الهيروغليفية بكتابة أصواتها بالحروف اليونانية (Crum 1942). وهناك العديد من الآثار المصرية ثلاثية اللغة والكتابة والتي تشمل الهيروغليفية والديموطيقيّة واليونانية (Clarysse 1978; Pezin 1978; Depauw 1997: 42) بالإضافة إلى إمكانية اعتماد العلماء العرب على معرفة بعض أهل مصر من القبط باليونانية والقبطية وربما اللاتينية أيضاً (Clarysse 1983: 56) مثل ديوسكورس من أواخر القرن السادس الميلادي الذي ترك لنا قوائم كلمات باليونانية والقبطية

وهو مايسر دون شك دراسة النصوص متعددة اللغات (Clarysse 1983: 57). وهناك تمثال للملك الفارسي المعروف دارا الأول عثر عليه في سوسة بإيران على قاعدة مصرية الطراز وعليه كتابة باللغات الأكديّة والعيلامية والفارسية القديمة والمصرية الهيروغليفية (Kervran 1972, Yoyotte 1972; Myśliwiec 2000: 146-155)

وليس أدل على شدة ولع العلماء العرب بالكتابات المصرية القديمة من تعدد أسماء الخطوط المصرية لديهم مثل: القلم البرباوي، قلم الطير، القلم الكاهني، القلم المسند، القلم الحميري، القلم القبطي، القلم المصري، قلم هرمس، قلم السيمياء، قلم النيرنجات، قلم الطلسمات، قلم القفطريات، القلم اللقيمي.

وأدرك العرب الصلة الحميمة بين المصرية القديمة والقبطية فسموا الأولى "القبطية الأولى" كما أدركوا أن القبطية هي خليط من المصرية واليونانية (الإدريسي، أنوار 100 وبعدها؛ القلقشندي، صبح الأعشى 3: 20).

الكتّاب العرب الذين ساهموا في حل رموز الخطوط المصرية القديمة

أول عالم عربي قيل أنه كتب في هذا الموضوع هو العالم الكيميائي الشهير جابر بن حيان الذي عاش في النصف الأخير من القرن السابع الميلادي والنصف الأول من القرن الذي يليه. ويبدو أن كتابه "حل الرموز ومفاتيح الكنوز" الذي لم أتمكن من العثور عليه كان دراسة مفصلة لعدد من اللغات القديمة حسبما يتبين من إشارات من جاءوا بعده من العلماء إلى أهميته (على سبيل المثال ابن وحشية، شوق 47-8). ومعروف عن جابر ولعه باللغات قديمها وحديثها بل استخدامه للكثير من الكلمات في لغاتها الأصلية كما نرى في كتابه المعنون "الحاصل" (Ryding 1997: 236).

ثم يأتي بعد ذلك العالم المصري أيوب بن مسلمة الذي صحب الخليفة العباسي المأمون خلال زيارته لمصر سنة 831 م وقيل أنه قرأ له النقوش المصرية القديمة على جدران الآثار بما له من "معرفة حل أشكال [sic] حروف الأقلام البرباوية" وقد لاحظ الإدريسي (ت. 1251 م) أنه لو كانت تلك النقوش باليونانية أو السريانية لما حرص المأمون على صحبة أيوب بن مسلمة لكثرة من يعرفون مثل تلك اللغات بين مرافقيه (الإدريسي، أنوار 61).

وهناك مخطوط ينسب إلى أيوب بن مسلمة، بعنوان "أقلام المتقدمين" عبارة عن دراسة لعدد من الخطوط القديمة منها المصرية إلا أن حالة المخطوط السيئة جعلت الإفادة منه محدودة كما أنه توجد لدي دواع للشك في نسبته إليه.

ثم نأتي إلى معاصره الأشهر ذي النون المصري (توفي منتصف القرن التاسع الميلادي) وهو صوفي ولد بأخميم وقيل أنه ترعرع في معبدها وكان ضليعا في العلوم القديمة، كما كان يجيد قراءة النصوص التي ازدانت بها جدران المعابد. وكان بعض معاصريه قد كادوا له عند الخليفة العباسي في بغداد واتهموه بأنه "أحدث في الإسلام ما ليس فيه" بإدخاله "علم الأحوال والمقامات" إلى الفكر الصوفي. وقد ترك لنا ذوالنون عددا من الرسائل في أبواب شتى، منها الكيمياء والشعر والتصوف. وكتابه المعنون "حل الرموز وبراء الأرقام في كشف أصول اللغات والأقلام" يعرف من نسخة فريدة تشمل دراسة لأكثر من ثلاثمائة كتابة قديمة، ومنها بطبيعة الحال الهيروغليفية والديموطيقية والقبطية. وقد لاحظت أنه يمكن للمشتغلين بحل الخطوط القديمة التي لا تزال غير معروفة مثل لاينير ب Linear B محاولة الإفادة من هذا الكتاب وهو ما أمل أن يتم في المستقبل القريب. وتتميز دراسته بأن الصفحة بها القيمة الصوتية للحروف يتبعها رسم أشكالها إلا أن نهاية المخطوط مفقودة.

أما العمل الأهم في مجال حل رموز الكتابة الهيروغليفية فهو الكتاب القيم لابن وحشية النبطي من أهل العراق من أوائل القرن العاشر الميلادي وهو أصلا من المشتغلين بالكيمياء، وله دراسة مطولة في الفلاحة بعنوان "الفلاحة النبطية" ذكر فيها أنه ترجمها عن لغة أسلافه الأقدمين.

وهناك نسختان من كتابه "شوق المستهام في معرفة رموز الأقلام" إحداهما فقدت الآن وهي التي درسها ونشر نصها العربي مع ترجمة إنجليزية للمستشرق النمساوي جوزيف همرو هي المشار إليها سابقاً وذلك في لندن سنة 1806 أي قبل أن ينشر شموليون رسالته الشهيرة سنة 1822 التي بين فيها نجاحه في حل رموز الهيروغليفية.

وقد حصلت على النسخة الأخرى للمخطوط ويتضح من دراستها أن عدد الخطوط القديمة التي وردت فيه أكثر من تلك الموجودة في النسخة التي ترجمها همرو. ويتمثل الإنجاز الرئيسي لابن وحشية في مجالين: أولاً تعرفه على عدد كبير من حروف الكتابة المصرية مع توصله إلى القيمة الصوتية الصحيحة لبعضها. ثانياً وهو الأهم توصله إلى أن بعض الأشكال الهيروغليفية هي مخصصات تستخدم لتحديد المعاني وقد أورد الكثير منها مع معانيها التي ثبت صحة معظمها حين مقارنتها بقائمة علامات جاردنر (Gardiner 1957. sign list).

ثم نأتي أخيراً إلى عالم عراقي الأصل أيضاً وهو مثل سابقه من المشتغلين بالكيمياء من القرن 14/13م هو أبو القاسم العراقي المصري. في كتابه "الأقاليم السبعة" نجد لوحات لنقوش ورسوم مصرية قديمة وأيقونات قبطية يتضح منها بذله المجهود في نسخها. وتوج أبو القاسم عمله برسم جدول للحروف البرباوية أي الهيروغليفية يمكن التعرف فيه على عدد من الحروف التي توصل إلى قراءتها الصحيحة والأهم هو حفظه لنا لوحة ترجع للملك أمنمحات الثاني من الأسرة الثانية عشرة يمكن لكل من له معرفة باللغة المصرية القديمة قراءتها ببسر.

وقد أدى كل هذا النشاط العلمي الكثيف عند العلماء العرب إلى حرص مؤرخ كبير كالمقريزي على إيراد ترجمة لبعض نقوش لوحات مصرية. إذ يذكر المقريزي بشيء من التفصيل قصة هدم باب البحر أحد أبواب القصر الفاطمي الذي بناه الحاكم بأمر الله أواخر القرن العاشر وجرى هدمه سنة 1273م على عهد الظاهر ركن الدين ببيرس. ويتبع المقريزي في إيراد ترجمته نص اللوحة نفس القواعد العلمية المتعارف عليها الآن في نشر مثل هذه النصوص مثل وصف اللوحة وذكر ظروف العثور عليها وموضع الكشف والسياق ثم ترقيم السطور وملاحظة بداية ونهاية كل سطر والإشارة إلى الفجوات lacunae الموجودة في النص إما بسبب تهشم موضعها أو محو الكتابة فيه وأخيراً محاولة تفسير النص ونقده (المقريزي، خطط 2: 425-429).

المصادر العربية المخطوطة

أيوب ابن مسلمة، (منسوب إليه) كتاب أقلام المتقدمين. مخطوط 10244 مكتبة الأسد (المعروفة سابقا بالظاهرية) دمشق.
ذو النون المصري ، أبو الفيض ثوبان ابن إبراهيم حل الرموز وبراء الأسقام في كشف علوم أصول لغات الأقلام. مخطوط Muallim Cevdet K. 290 مكتبة أتاتورك، اسطنبول.
ابن وحشية، أبو بكر أحمد ابن علي ابن قيس الكسداني كتاب شوق المستهام في معرفة رموز الأقلام. مخطوط Arabe 6805 المكتبة الوطنية، باريس.
أبو القاسم العراقي كتاب الأقاليم السبعة. مخطوط Add. 25,724. المكتبة البريطانية، لندن.

المصادر العربية المطبوعة

ابن الدواداري ، أبو بكر ابن عبد الله كنز الدرر وجامع الغرر. جزء 3 تحقيق م. جمال الدين. القاهرة و فيسبادن: شتاينر 1981.
الإدريسي، أبو جعفر محمد ابن عبد العزيز أنوار علوي الأجرام في الكشف عن أسرار الأهرام. تحقيق أولريخ هارمان. بيروت و فيسبادن: شتاينر 1991.
المقريزي، أبو العباس أحمد ابن عبد الله كتاب المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار. تحقيق أيمن فؤاد سيد. 5 أجزاء في 6 مجلدات. لندن: الفرقان 2002-2004.
القلقشندي، شهاب الدين أبو العباس أحمد ابن علي المصري صبح الأعشى في صناعة الإنشا. تحقيق محمد شمس الدين. 15 جزءاً. بيروت: دار الفكر.

المراجع الأجنبية

Bilabel, F., A. Grohmann, and G. Graf (1934) Griechische, koptische und arabische Texte zur Religion und religiösen Literatur in Ägypten Spätzeit.

Heidelberg: Verlag der Universitätsbibliothek

Bloch, E. (1907) Peintures de Manuscrits Arabes à Types Byzantins. In Revue Archéologique. Paris. 4th Series: 9: 193-223.

- Études sur le Gnosticisme musulman. 5 articles in Rivista degli Studi Orientali:

■ (1909) 2: 717-756.

■ (1910) 3: 177-203.

■ (1911-12) 4: 47-79 & 267-300..

■ (1914-15) 6: 5-67.

Budge, W. (1929) The Rosetta Stone: London. Reprint Dover Publication 1989.

Clarysse, W. (1978) Notes on some Graeco-demotic surety contracts. Enchoria 8: 2:

5-8.

- (1983) Literary Papyri in Documentary “Archives”. In E. Van ’t Dack, P. van Dessel and W. van Gucht (eds.) Egypt and the Hellenistic World. Proceedings of the International Colloquium, Leuven 24-26 May 1982. Leuven: Lovanii, 43-61.
- Cory, A. (1840) The Hieroglyphics of Horapollo Nilous. London: William Pickering.
- Crum, W. (1942) An Egyptian Text in Greek Characters. The Journal of Egyptian Archaeology **28**: 20-31.
- El Daly, O. (2005). Egyptology: The Missing Millennium. Ancient Egypt in Medieval Arabic Writings”. London: UCL Press.
- Depauw, M. (1997) A Companion to Demotic Studies. Bruxelles: Fondation Égyptologique Reine Élisabeth.
- DuQuesne, T. (1991) A Coptic Initiatory Invocation (PGM IV 1-25). Thame Oxon: Darengo.
- Fodor, S. (1992) Traces of the Isis Cult in an Arabic Love Spell from Egypt. In U. Luft (ed) The Intellectual Heritage of Egypt. Studies Presented to László Kákósy. Budapest: University Press (Studia Aegyptiaca **14**), 171-186.
- Gardiner, A. (1957) Egyptian Grammar. Oxford: OUP.
- Hammer, J. 1806. Ancient Alphabets and Hieroglyphic Characters Explained; with an Account of the Egyptian Priests, their Classes, Initiation, and Sacrifices in the Arabic Language by Ahmad Bin Abubekr Bin Wahshih. London: Bulmer
- Haarmann, U. (1980) Regional Sentiment in Medieval Islamic Egypt. Bulletin of the School of Oriental and African Studies **43**: 55-66.
- (1982) Quellen zur Geschichte des islamischen Ägypten. Mitteilungen des Deutschen Archäologischen Instituts Abteilung Kairo **38**: 201-210.
- (2001) Islam and Ancient Egypt. In D. Redford (ed.), Oxford Encyclopaedia of Ancient Egypt. 3 vols. Oxford: Oxford University Press, Vol. 2: 191-194.
- Iversen, E. 1993. The Myth of Egypt and its Hieroglyphs. Princeton: Princeton University Press. Second edition. First published in 1961, Copenhagen: Gad Publishers.
- Kervran, M. (1972) Une statue de Darius découverte à Suse. Le contexte archéologique. Journal Asiatique **260**: 235-239.

- Kircher, A. (1652-4) Œdipus Ægyptiacus. 3 volumes. Amsterdam.
- Meyer, M. and R. Smith (1994) Ancient Christian Magic. San Francisco: Harper.
- Myśliwiec, K. (2000) The Twilight of Ancient Egypt. First Millennium B.C.E. Ithaca and London: Cornell University Press.
- Parkinson, R. (1999) Cracking Codes: The Rosetta Stone. London: British Museum Press.
- Pezin, M. (1978) Les Etiquettes de Momies du Musée de Picardie à Amiens. Enchoria 8/2: 9-12 & plates 3-4.
- Pope, M. (1999) The Story of Decipherment. First published 1975. London: Thames and Hudson.
- Robinson, J. (ed) (1996) The Nag Hammadi Library in English. 4th ed. Leiden: Brill.
- Ryding, K. (1997) The Heritage of Arabic Alchemy: The Multiculture Matrix. In A. Hasnawi, A. Elamrani-Jamal and M. Aouad (eds) Perspectives arabes et médiévales sur la tradition scientifique et philosophique grecque (OLA 79), Leuven and Paris: Peeters and Institut du monde arabe, 235-248.
- Sezgin, F. (1967-) Geschichte des arabischen Schrifttums. [GAS] 9 volumes-. Leiden: Brill.
- Solé, R. & D. Valbelle (2001) The Rosetta Stone: The story of the decoding of hieroglyphics. London: Profile Books. Translated by S. Rendall from the French La pierre de Rosette. Paris: Seuil. 1999.
- Thissen, H-J. (1994) Horapollinis Hieroglyphika Prolegomena. In M. Minas and J. Zeidler (eds) Aspekte spätägyptischer Kultur, Festschrift für Erich Winter. Mainz am Rhein: von Zabern, 255- 263.
- Valbelle, D. (1994) L'égyptologie. Reprint from first edition 1991. Paris: Presses Universitaires de France.
- Young, D. (1981) A Monastic Invective Against Egyptian Hieroglyphs. In D. Young (ed) Studies Presented to H. J. Polotsky. Massachusetts: Pirtle and Polson, 348-360.
- Yoyotte, J. (1972) Une statue de Darius découverte à Suse. Les inscriptions hiéroglyphiques: Darius et l'Égypte. Journal Asiatique 260: 253-266.